# بلاغة السكاكي؛ بحسب «نظرية فنّ البيان البلاغيّة»

د. محمد خاقاني أصفهاني[1]
تاريخ الاستلام ٢٠٢٤/٣/١
تاريخ القبول ٢٠٢٤/٥/٥

## الملخّص

تأسّست البلاغة العربيّة كحلقة تكامليّة بعد النحو العربيّ، لتخدمَ القرآنَ الكريم بالكشف عن جماليّاته ودقائقه. لكن البلاغة التقليديّة عانت من نقائص، وتكبّلت بقيود جرّتها إلى ﴿شفا جرف هار﴾ [التوبة: ١٠]، وتلفّظت أنفاسها الأخيرة في العقود الراهنة، حيث أعلنوا في الغرب الحديث عن موتها وتشييع جثمانها على أكتاف شُعب اللسانيّات الجديدة، وحذفوا مادّتها من قاعات التدريس. أمّا المسلمون عربًا وعجمًا فقد احتاروا في أمر هذا المحتضر؛ هل يحيونها من جديد بصدمة كهربائيّة، بوصفها الكفيلة الوحيدة بالدفاع عن المعجزة القرآنيّة؟ أم يواكبون تيّار الحداثويّين وما بعد الحداثويّين، ويضعونها في تابوت الماضي المجيد؟! يحلّل هذا البحث عبر المنهج الوصفيّ التحليلي إشكاليّات هذه المنظومة البلاغيّة، وقد توصّلنا فيه إلى أنّ بلاغة السكاكي ولدت

١- أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان، الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، أصفهان
khaqani@fgn.ui.ac.ir

ناقصةً، ولم تكن سليمة حتى في زمانها، وليست صالحة للإحياء، لأنّها تعاني من نقائص ذاتيّة في هيكليّتها العامّة وفي تقسيمها الثلاثيّ: المعاني والبيان والبديع، وفي غفلتها عن النصّ بوصفه الوحدة الرئيسة في الكلام البشريّ، وهذا ما فرض على الباحث رسم مشروع بلاغيّ مختلف سمّاه: «نظريّة فنّ البيان البلاغيّة".

الكلمات المفتاحيّة: بلاغة السكّاكي، نظريّة فنّ البيان البلاغيّة، البلاغة الجديدة، المعاني والبيان والبديع.

# ١.المقدّمة :

## ١-١.أهميّة البحث

تكمن أهميّة مادّة البلاغة في أنّها الأساس في تحليل النصوص الأدبيّة. إن اللغة العاديّة عندما ترتقي تصل إلى مفترق طريقَين، هما: اللغة العلميّة واللغة الأدبيّة. تمتاز الأولى بالصراحة والشّفافية، وتتطلّب الاتفاق بين المتخصّصين في أيّ حقل من الحقول العلميّة، لأنّ وظيفتها الكشف عن أسرار الكائنات خارج وجود الإنسان، لكنّ الثانية تهدف إلى الداخل، ولذلك تنحاز إلى الغموض، وتعدُّ الكنايةَ أبلغَ من التصريح. أمّا الحقل المتكفّل بدراسة جماليّات النصّ الأدبيّ فهو البلاغة. وقد ظهرت في العقود الأخيرة بعض الحقول الجديدة لدراسة النصوص الأدبيّة كالنقد الأدبيّ والأسلوبيّات والسيميائيّات وتحليل الخطاب وما إلى ذلك، لكنّنا نعدّها فروعًا من علم البلاغة، شرط تحديثها عبر مشاريع بلاغيّة تتجاوز بلاغة السكاكي، وتتأهّل للنظر إلى الأدب بمنظار جديد.

## ١-٢.إشكاليّة البحث

الإجماع معقود على أنّ البلاغة العربيّة تأسّست لخدمة القرآن الكريم وإثبات إعجازه الخالد. وكانت حليفةَ النحو العربيّ وشريكته في الكشف عن أسراره ودقائقه. وقد مرّت بمراحل بِدءًا بمرحلة الولادة والمخاض، مرورًا بمرحلة النضج والكمال والإبداع، ووصولًا إلى مرحلة الجمود والتقعيد والدوران في دوّامة المطوّلات والمختصرات والشروح والتفاسير. وفي هذه المراحل، عاشت التجاربَ نفسها التي عاشها الأدب العربيّ بشكل عام، من ظهور ونضج وانحطاط، إلى أن اصطدمت العقليّة العربيّة والإسلاميّة بطيف جارف من الثقافة والحضارة الغربيّتين، حيث أعلن بعض الدارسين في الغرب عن موت البلاغة التقليديّة: «وقد نمت العلومُ الألسنيّة والجماليّة والإنشائيّة على حساب البلاغة، وكانت هذه العلوم هي البلاغة الحديثة أو تعويضًا عن البلاغة، لأنّ البلاغة التقليديّة ماتت ودُفنت بحسب تعبير جيرو (Giraud)» (كفوري، ١٩٩٤م، ص ١٤)

فاندلعت نيران حرب قاسية بين الأصالة والمعاصرة، وبين العراقة والحداثة وما بعد الحداثة. وبرزت على الساحة تيّارات فكرية متضاربة شتّى من المحافظين المصرّين على الأصالة العربيّة والإسلاميّة، والإصلاحيّين المتطرّفين المنادين للثورة على هيمنة التراث، ومذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

في أجواء هذه الحيرة؛ برزت على الساحة العربيّة مشاريعُ لإحياء البلاغة التقليديّة، أو لوضع بدائل عنها، ومن أقوى هذه المشاريع ذلك الذي صاغه الشيخ أمين الخولي بعنوان: «فن القول» (الخولي، ١٩٩٦م).

وقد وُصفت البلاغة العربية في مرحلتها الأخيرة بالجفاف والجمود، ووُصفت مناهج علمائها بالتكرار والتعقيد، وقد عدّ بعضُ الباحثين جملةً من الأسباب التي كانت وراء هذا الجمود والتعقيد هي:

أ) نشأة البلاغة في بيئة المتكلّمين والأصوليّين،

**ب) أثر الفلسفة والمنطق في البلاغة العربيّة،**

**ج) أكثر علماء البلاغة العربيّة هم من غير العرب،**

**د) ربط البلاغة العربيّة بقضيّة إعجاز القرآن الكريم،**

**هـ) تراجع الأدب وعزلة العربية، خاصَّة في العصور التي تلت القرن الخامس الهجري،**

**و) النظرة الاجتزائيّة في البلاغة العربيّة (محمد، ٢٠١٣م، ص ٤٢٥)**

لكنّها تعدّت مرحلةَ الجمود والجفاف إلى حركات تجديديّة لم تتقيّد بحدود التراث، فظهرت الاتجاهات التالية في تجديد البلاغة العربيّة:

من يقول بموت البلاغة العربيّة وضرورة ضربها على الحائط، والذي «يدعو إلى قتل المريض وتغييبه تحت أطباق الثرى بين عبرات الرحمة وزفرات الإشفاق.

ومن يرى في البلاغة القديمة رائدًا معرفيًّا ثرًّا يمدّ الأسلوبيّات اللسانيّة ونظريّة اللسانيّات النصيّة بما يعين لإحياء موات القديم واستنباط الصالح من ثمرات الجديد» (مصلوح، ٢٠١٠م، ص ٩٨).

نحاول في هذا البحث أن نرصد الأخطاء المنهجيّة والتطبيقيّة التي ارتكبها السكاكي في منظومته البلاغيّة، لنرى هل انتهى مفعولها؟ أم يمكن إحياؤها من جديد؟

## ١-٣.سابقة البحث

- ظهر لأمين الخولي كتاب: «مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب»، تتبَّع فيه تاريخَ البلاغة، ودعا إلى نبذ منهج المدرسة الفلسفيّة وتعويضه بمنهج المدرسة الأدبيّة. حاول الخولي إعادة البلاغة العربيّة الى رحاب الدرس الأدبيّ؛ ليجعل منها فنًّا جميلًا فاتّخذ (التخلية والتحلية) لموادّ البلاغة سبيلًا لإكسابها الصورة المحبّبة. فالتخْلية تخليص البلاغة من الجمود والجفاف والذبول، فإذا ما تمَّ ذلك صَلحُت بعده التحْلية بأسباب الحُسْن، ووسائل التأثير، وزيادة ما يجب زيادته (الخولي، ١٩٩٦، ص ٢٢٧). يفضّل أمين الخولي تسمية البلاغة بفنّ القول، ويري «ضرورة العدول عن الثلاثيّة المصطلحيّة إلى مصطلح واحد جمع هو البلاغة». ثم يقسّم الدرس إلى بلاغتَين: بلاغة الألفاظ وبلاغة المعاني (الخولي، ١٩٩٦م، ص ٢٦٧).

- يرى أحمد الشايب أنّ علوم المعاني والبيان والبديع ـ على خطرها ـ لا تستوعب أصولَ البلاغة كما يجب أن تكون، وأنّ موضوعات هذه العلوم ينبغي أن تدخل لا على أنّها علوم مستقلّة، بل على أنّها فصول في باب الأسلوب، يتناول بحوثها كما يتناول غيرها (الشايب، ١٩٧٦م، ص ٤). لكنّ كتابه برأي مصلوح أقرب إلى التشريع والإرشاد والنصح إلى البحث العلمي الهادي إلى طريق مقاربة النصوص وتحليلها (مصلوح، ٢٠١٠م، ص ٤٩).

- عدَّ خليل كفوري كتابه: «نحو بلاغة جديدة» ثورةً في عالم البلاغة، وأكّد أنّ «الدراسات في عصر الانحطاط بعدت كثيرًا عن جوهر البلاغة، وصارت تلوك مصطلحات عقيمة يجب تخليص البلاغة منها. البلاغة بِنتُ الأدب، ووُجدت لتشرحَ صدر أبيها لا لتخنقه. وعلّل سبب العقم

في البلاغة الانحطاطيّة بتأليف شواهد اصطناعيّة لمصطلحات جاهزة، وهذا زوّد البلاغة بمئة وستين اصطلاحًا لا تمتّ إلى البلاغة بصلة. فأصبحت الدراسة عبئًا على الطلاب، وأصبحت بعيدة عن الحياة وعن الحاجة». ويتساءل: «ما علاقة السرقة مثلًا بالبلاغة؟ وما علاقة المعاظلة أو الاستعارة البشعة أو السجع المتكلّف بالبلاغة؟» (كفوري، ١٩٩٤م، ص ٥).

- حاول سعد عبد العزيز مصلوح في كتابه: «في البلاغة العربيّة والأسلوبيّات اللسانيّة؛ آفاق جديدة» من إصدارات عالم الكتب في القاهرة سنة ٢٠١٠ أن يقدّم مشروعًا لإحياء البلاغة العربيّة. وقد ذكر مصلوح محاورَ الخلاف بين البلاغة العربيّة واللسانيّات الحديثة (١١ محورًا) لإصلاح علم البلاغة، كي تستجيب لمتطلّبات المرحلة الراهنة.

- وقد تطرّق موسى سلامة في كتابه: البلاغة العصريّة واللغة العربيّة إلى المضامين العامّة المتعلّقة بالأبعاد السوسيولوجيّة والسايكولوجيّة للغة العربيّة. وفيه تركيز على الخلافات بين العربيّة القديمة والمعاصرة (سلامة، ١٩٦٤م).

- خصّ عدنان بن ذريل الفصلَ الخامس من كتابه «النصّ والأسلوبيّة بين النظريّة والتطبيق": بعنوان: في البلاغة الجديدة (ابن ذريل، ٢٠٠٠م).

- اتّبع الأزهر الزنّاد في تأليف كتابه: «دروس في البلاغة العربيّة نحو رؤية جديدة» نهج الدرس البلاغيّ العربيّ القديم، لكنّه زوّده بمعطيات الدرس اللسانيّ الحديث (الزنّاد، ١٩٩٢م، ص ٥).

- يحدّد محمّد مصطفى هدّارة في كتابه: علم البيان منهج الكتاب بإبراز القواعد البيانيّة كما ثبتت في كتب التراث البلاغيّ، وفي الوقت ذاته يريد «تحريرها من جمودها وثبات أمثلتها والتخفّف من التقسيمات والتفريعات ما أمكنه ذلك وربطها بالنقد الأدبيّ، خاصّة

أن موادّ البيان تتصل اتصالًا وثيقًا بالصورة الفنيّة» (هدّارة، ١٩٨٩م، ص ٨).

- محمّد سليمان ياقوت صاحب كتاب: «علم الجمال اللغويّ: المعاني، البيان، البديع». ما يهمّنا في هذا الكتاب النقلةُ النوعيّة في العنوان من البلاغة إلى علم الجمال. خصّص ياقوت الفصل الثالث من كتابه بعلم الجمال الصوتيّ، وفي الفصل الرابع بعنوان: علم الجمال التركيبيّ والفصل الخامس بعنوان: علم الجمال الدلاليّ (ياقوت، ١٩٩٥م).
- أمّا «نظريّة فنّ البيان البلاغية» فتختلف عن المحاولات السابقة اختلافات جذريّة كثيرة تتبيّن في هذا البحث، من أهمّها: استقصاء المشاكل التي عانت منها بلاغة السكاكي وفرزها بين الأخطاء الكليّة والجزئيّة.

## ١-٤.أسئلة البحث

السؤال الأوّل: هل كانت بلاغة السكاكي منظومةً متكاملة عند ظهورها، أم أنّها وُلدت ناقصةً غيرَ منتظمةٍ من الأساس؟

السؤال الثاني: ما الأخطاء الكليّة التي عانت منها بلاغة السكاكي منذ ظهورها؟

السؤال الثالث: ما الأخطاء الجزئيّة التي عانت منها بلاغة السكاكي منذ ظهورها؟

السؤال الرابع: هل تصلح بلاغة السكاكي للإحياء من جديد؟ أم أنّ مفعولها قد انتهى؟

### ١-٥.منهج البحث

جرى تطبيق المنهج الوصفيّ التحليليّ في هذا البحث لوصف بلاغة السكاكي أوّلًا، ثمّ لتحليل أخطائها المنهجيّة والكليّة والجزئيّة.

## ٢. نظرة عابرة إلى البلاغة العربيّة

### ٢-١. نشأة البلاغة العربيّة:

تبلورت معالم البلاغة الكلاسيكيّة عند اليونان وفلاسفته المشهورين. و»كانت عندهم هي: «فنّ الإقناع»، كما يقول أرسطاليس. كان أرسطاطاليس يطلق على هذه القضايا المشتركة مصطلح: «أدلة» جمع دليل: ارجمان؛ واستنادًا إلى ذلك اشتقّ الغربيّون مصطلح «إدلال»: ارجمنتاسيون، ويقصد عندهم عمل المقاصد، والبرهنة الأدبيّة عليها، أو حمل الدلالة بحمل الدليل، أي بما يعادل الكلام في موضوع، مع إشفاعه بمحاجّة جدليّة تدعمه لدى المتلقي، لا سيّما وأنّ البلاغة القديمة بصفتها خطابيّة هي موجّهة إلى الجمهور، وتستهدف الحصول على تأييده لأطروحاتها (ابن زريل، ٢٠٠٠م، ص ٥٣).

أمّا عند العرب، فقد تبلورت البلاغة في خضمّ القرآن الكريم، وشملت المحاولات التي انصبّت على العلوم اللغويّة العربيّة للكشف عن الأسرار الجماليّة لهذه المعجزة السماويّة؛ تلك الأسرار التي تفوق بنية الجملة القرآنيّة، والتي تتبنّاها علوم كالصرف والنحو والصوتيّات أو التجويد.

وقد عرّف بعضهم البلاغةَ بأنّها «ملكة نفسانيّة يقتدر بها الإنسان على تأدية المعنى إفادةً ودلالةً» (البابرتي، ١٩٨٣م، ص ١٣٣).

لكنّ مثل هذه التعاريف تركّز على القوّة في الكلام وعَدِّها شرطًا للكلام

البليغ، ولا تأخذ بالحسبان أنّ الكلام قد يكون قويًّا ومتينًا بفضل القواعد اللغويّة وسلامة المعنى، من دون تحقيق أيّة تقنيّة بلاغيّة.

وقد اختلف الباحثون في مصدر الدراسات البلاغيّة عند المسلمين، حيث ذهب بعضهم إلى أنّ الأبحاث البلاغيّة عند المسلمين أصيلة وقد ابتكروها بفضل جماليّات القرآن الكريم، والبعض الآخر أسند النشاطات البلاغيّة الأولى في تاريخ الإسلام إلى نهضة الترجمة وتعرّف المسلمين إلى أعمال اليونان.

تعود نشأة البلاغة العربيّة مثل سائر العلوم اللغويّة والفقهيّة وغيرها في الحضارة الإسلاميّة إلى الحدث القرآنيّ. فبنزول القرآن الكريم وانتشار الإسلام ظهرت الحاجة إلى وضع القوانين التي تحكم عمله من حيث هو نصّ لغويّ وتضمن فهمه الفهم السليم (الزنّاد. ١٩٩٢م، ص ٧).

جاء القرآن الكريم بأساليب بلاغيّة بيانيّة جديدة قوّضت أركان الشعر وزحزحته عن مكانته المرموقة التي كان يحتلّها ضمن المنظومة النصّيّة السائدة. ... «وصار القرآنُ هو النصّ المهيمن المسيطر الذي تقاس عليه النصوص الأخرى وتتحدّد به مشروعيّتها» (أبو زيد. ١٩٩٠م، ص ٢٦). وهذا يعني أنّ النصّ القرآنيّ صار هو المعيار والقاعدة.

لكنّ البلاغة العربيّة أفلَ نجمُها في القرون الأخيرة، إذ ظلّت منغلقة على نفسها في طيّات كتب الشروح والتعليقات، إلى أن اصطدمت أخيرًا بتيار جارف من التصوّرات الحديثة في عالم الفنّ والأدب، وتشتّت البلاغيّون المسلمون بين المحافظين المصرّين على التراث والمجدّدين المتحمّسين لكلّ ما هو جديد. فدعا بعضهم إلى تهميش البلاغة العربيّة لصالح علوم كالنقد الأدبيّ والأسلوبيّات، ودعا بعضهم إلى تجديد البلاغة العربيّة لإحيائها وإنقاذها من هذه الورطة العصيبة.

## ٢-٢. المؤلّفات البلاغيّة العربيّة:

كان القرن الثاني الهجريّ أوّل عصر شهد نشأة آراء كثيرة أصيلة ومترجمة حول البلاغة وعناصرها، ثم أُلّفت في القرن الثالث كتبٌ تجمع كثيرًا من الدراسات الموجزة حول البلاغة. من هذه الكتب إعجاز القرآن لأبي عبيدة (ت: ٢٠٧هـ)، وصناعة الكلام ونظم القرآن للجاحظ والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد وإعجاز القرآن للواسطي المعتزلي (ت: ٣٠٦هـ). إلّا أنّ أهمّ كتاب تناول بعض مسائل البلاغة بالبحث هو كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي.

ومن المؤلفات الإسلاميّة التي ظهرت في ساحة البلاغة: صحيفة بشر بن معتمر (ت: ٢١٠هـ)، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ البصري (ت: ٢٥٥هـ)، وعيار الشعر لابن الطباطبا (م ٣٢٣)، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت: ٣٣٧هـ)، والنكت في إعجاز القرآن للرماني (ت: ٣٨٦هـ)، وبيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي (ت: ٣٨٨هـ)، وكتاب الصناعتين لأبي الهلال العسكري، ونرى أصول الفصاحة لأوّل مرّة في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ) (عمارتي، ١٣٩٥ش [٢٠١٦م]، ص ٦-٨).

وجاء أبو بكر عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة العربيّة والمتوفّى سنة ٤٧١هـ. فألّف في البلاغة كتابَين جليلَين هما:

أسرار البلاغة؛ وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة، وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع.

دلائل الإعجاز؛ وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني. ويعدّ الجرجاني أوّلَ من وضع مناهج بحوث البلاغة العربيّة على وجه التحقيق.

وبعد عصر الجرجانيّ نذكر الزمخشري في تفسيره والرازي في كتابه: «نهاية الإيجاز» وابن الأثير صاحب المثل السائر. ومن أهمّ هؤلاء العلماء في هذا العصر: أبو يعقوب السكاكي المتوفّى في العام ٦٢٦هـ.

الذي ألّف كتابه: المفتاح وجعله أقسامًا وخصّ القسم الثالث منه بالبلاغة، وقسّمها إلى ثلاثة أقسام: المعاني والبيان والبديع. وبعد ذلك تميّزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل (الخفاجي. ١٩٨٩م، ص ١١).

وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها تدوينًا كاملًا.

وجاء الخطيب القزويني (ت: ٧٣٩هـ). فألّف في البلاغة كتابَيه: تلخيص المفتاح والإيضاح. وقد ألّف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرًا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح.

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير وفي مقدمتها: الأطول لعصام والمطوّل لسعد (الخفاجي. ١٩٨٩م، ص ١١).

والأصوليّون جمعوا من العلوم المختلفة ما يرجع إلى غرضهم ويختصّ ببحثهم فألّفوه وصيروه علمًا (الخمري. ٢٠٠٧م، ص ١٣٨).

## ٢-٣. فصول البلاغة العربيّة:

### ٢-٣-١. علم المعاني:

عُرّف علم المعاني بأنه «تتبع خواصّ تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره، ليُحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام، على ما يقتضي الحال ذكره» (السكاكي، ١٩٨٤م، ص ١٦١).

إنّ علمَ المعاني شديدُ الصلة بالنحو، بحيث يسمّيه الجرجاني علمَ معاني النحو. يفترض تمّام حسّان «أنّ الشراكة قائمة بين النحو والمعاني من

جهة دراسة الجملة، وتقريره أنّ الفارق الأساسيّ هو أن النحو يقف عند الجملة، والمعاني تتجاوز الجملة إلى العلاقات بين الجمل» (حسان، ١٩٩٤م، ص ٣٤٠). لكنّ أحمد علوي يردّ عليه بقوله: وإنّما هناك علاقة بين مستويَين من التحليل: النحويّ الذي ينظر إلى الإنتاج اللغويّ مستقلًّا عن المتكلّمين، ويدرس منه الملك الشائع العام، والتحليل النظمي (علم المعاني) الذي يدرس الإنتاج اللغويّ من جهة كونه في جانب فيه راجعًا إلى قدرات المتكلّمين واختياراتهم، فهو بحث في العلم اللغويّ الخاصّ بالمتكلّم (العلوي، د.ت، ص ٢٣٢).

وقد انقسمت أبحاث علم المعاني إلى ثمانية أبواب هي: المسند إليه، والمسند، والإسناد الخبري، وأحوال متعلّقات الفعل، والخبر والإنشاء، والقصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة. وقد تحدّثنا عن هذه الأبواب وضرورة نقل معظمها من علم المعاني إلى علم النحو في رأينا، في كتابنا: البلاغة الجديدة.

## ٢-٣-٢. علم البيان:

يدرس علم البيان الوجوه التي يخرج بها اللفظ عن معناه الأصليّ إلى معنى آخر متّصل به. وتجمع هذه الظاهرة في المجاز (المرسل والعقليّ والاستعارة والكناية). وعرّفه السكاكي أنّه «معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليُحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه» (السكاكي، ١٩٨٤م، ص ١٦٢).

وبحسب البلاغة التقليدية؛ الحقيقة أن يُستعمل اللفظ في معناه الحقيقيّ الذي وُضع له، والمجاز هو أن يُستعمل في غير معناه الحقيقيّ الذي وُضع له. والخروج من الاستعمال الحقيقيّ إلى الاستعمال المجازيّ

يتمّ بنقل دلالة المطابقة إلى دلالتَي التضمّن والالتزام بحسب التقسيم الثلاثيّ المنطقيّ لأنواع دلالة الكلمة.

وقد عرّف الجرجاني المجاز بكلّ كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول (الجرجاني، ١٣٧٢هـ، ص ٣٢٤).

لكن المجاز عند أبي عبيدة يشمل جميع الأساليب البلاغيّة... ومنها خروج الاستفهام عن معناه إلى معنى التقرير. والمجاز عند الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» ضدّ الحقيقة، وهو يشمل التشبيه والاستعارة، بل يضاف إليها الكناية، ونفهم من بعض أقواله أنّ المجاز قد يشمل التعبير الأدبيّ كلّه، حتّى ما يدخل بعد ذلك في علم البديع، وهو ما سمّاه اللغز، وما يدخل أيضا في علم المعاني وهو إيجاز القصر والحذف وأساليب الخبر والإنشاء (هدّارة، ١٩٨٩م، ص ١٣).

يتوفّر في المجاز وجهٌ طريف في الدلالة يأتيه شاعر دون آخر. فهو يتّصل بقدرة الفرد على إجراء اللغة. فلا يمكن ضبط ذلك الوجه في قاعدة خاصّة به، وإن أمكن إرجاعه إلى القاعدة العامّة (الزنّاد، ١٩٩٢م، ص ٧٢).

تتّفق كتب البلاغة في تفضيل المجاز على الحقيقة من جهة كونه أبلغ منها. فقد قرّر السكاكي «أنّ الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأنّ الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر»(السكاكي، ١٩٨٤م، ص ٤١٢).

إذًا؛ تنقسم الألفاظ بحسب طبيعتها إلى حقيقة ومجاز. فالحقيقة لا تقبل التأويل، في حين أنّ المجاز يجب تأويله. والدلالة في الحقيقة مطابقيّة، وفي المجاز إما تضمّنية وإما التزاميّة.

وقد قسّم محمد مفتاح التأويلَ إلى مستويَين: مستوى يقوم به الراسخون في العلم (أي العلماء)، ومستوى آخر لا يقدر عليه إلّا خواصّ العلماء، وهذه الفكرة مأخوذة من ابن رشد، والتي كرّرها في أكثر من موضع في كتابه: «فصل المقال». لكنّه أهمل مستوى آخر من مستويات التأويل؛ وهو الذي يُعدُّ من أسرار القرآن الكريم، والذي لا

يعلم تأويله إلّا الله تعالى، وهو المستوى الأكثر عمقًا (خمري، ٢٠٠٧م، ص ١٦٧).

لكنّنا نرفض هذا المستوى الأخير، بحجّة أنّ وجود مستوى في كلام المتكلّم غير قابل لفهم أيّ سامع يجعل هذا الكلام لغزًا بدون رسالة، وهذا يتناقض مع حقيقة الكلام التي هي إيصال الرسالة إلى المتلقّي.

## ٢-٣-٣. علم البديع:

البديع علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة.

أوّل من جمع بعض وجوه البديع ابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ) في كتابه: «كتاب البديع». وبعده قدّامة بن جعفر (٢٥٧-٣٣٧هـ). ثم تطوّر العلم مع أبي هلال العسكري في «كتاب الصناعتين» والرماني في «النكت في إعجاز القرآن»، واستوت أسسُ العلم مع ابن رشيق القيرواني في «العمدة» ونضج مع السكاكي (٥٥٥-٦٢٥هـ) في «مفاتيح العلوم».

وقد قسّموا البديع إلى نوعين: بديع يحسّن به الكلام من جهة المعنى، فهو معنويّ، وبديع يحسّن به الكلام من جهة اللفظ، فهو لفظيّ.

تجدر الإشارة إلى أنّ «المحسّنات اللفظيّة كلّها تتّصل بالجماليّات الصوتيّة في اللغة الأدبيّة، ولها صبغة صوتيّة (Phonological). وقد نبّه شميسا بفارق مهمّ بين المحسّنات اللفظيّة والمعنويّة؛ وهو أنّ المحسّنات اللفظيّة كلّها تقع في محور العلاقات التركيبيّة أو التتابعيّة (Syntagmatic). لكنّ المحسّنات المعنويّة بعضها يقع في ذلك المحور والبعض الآخر يقع في محور العلاقات الاستبداليّة (Paradigmatic)» (شميسا، ١٣٧٢ش [١٩٩٣م]، ص ١٥).

## ٣. الأخطاء الكليّة في بلاغة السكاكي

رصد الباحث نقائصَ -في منظومة السكاكي- مقارنةً بالمنظومات البلاغيّة التي ظهرت بعده في القرون الأخيرة إثر التجارب التي مرّت بها في الحضارة الغربيّة الجديدة، ولا تؤخذ على السكاكي هذه النقائص، لأنّه عاش في زمن قبل ظهور هذه التجارب. وقد تطرّق إلى هذه النقائص في بحوث أخرى.

لكن هذا البحث كفيل فقط برصد الأخطاء الكامنة في بلاغة السكاكي منذ أوّل ظهورها، ولا ترتبط بالتجارب الحديثة.

هذا وقد انتبه الباحثون السابقون إلى بعض هذه الأخطاء، نحاول الإشارة إلى أسمائهم لمراعاة الأمانة العلميّة. لكنّ معظم الأخطاء التي نذكرها في البحث هي ما استنتجها هذا الباحث خلال تدريس مادّة البلاغة على مدى ثلاثة عقود، ممّا دفعه إلى رسم منظومة بديلة سمّاها: «نظريّة فنّ البيان البلاغية».

والمقصود من الأخطاء الكلية، هي التي تمسّ شاكلة البلاغة في عمومها، مقابل الأخطاء الجزئيّة التي ترتبط بجزء من أجزاء البلاغة التقليديّة كالمقدمة والمعاني والبيان والبديع.

### ٣-١. الخطأ في اختيار عنوان: «البلاغة»

يرى الباحث أنّ اختيار عنوان (البلاغة) لهذا العلم اختيارًا خاطئًا. لأنّ البلاغة والإبلاغ والبلاغ كلمات مقدّسة قرآنيّة لكنّها لا تفي بالمقصود، وهي أعمّ من إطار هذا العلم، لأنّ اللغة العلميّة أيضًا يجب أن تكون بليغة قادرة على إيصال المعنى في قاعة الدرس والبحث العلميّ. نحن بحاجة إلى تسمية فنّيّة تناسب ماهيّة هذا العلم الدائر مدار الفنّ. لذلك

وقع اختيار أمين الخولي على عنوان: «فنّ القول»، لكنّ المؤلف يفضّل عنوان: «فنّ البيان» لأسباب ذكرها في بحث آخر. إنّ تسمية هذا الحقل بالفنّ للتأكيد على بُعده الجماليّ، مقابل الحقول العلميّة التي لا ترتبط بالجمال والأحاسيس والعواطف البشريّة، مع ملاحظة أنّ تسمية هذا الحقل بالفنّ لا تكفي ولا بدّ أن تغطّي عمليّات الدرس البلاغيّ في جميع مراحله.

## ٣-٢. انعدام الطابع الجمالي

من ميزات البلاغة التقليديّة سيطرة الأسلوب المنطقيّ والفلسفيّ على تصنيفاتها وأبحاثها، ومن أمثلتها تقسيمات منطقيّة كثيرة لأنواع التشبيه والاستعارة، ممّا يبعد المتلقّي عن تذوّق الجمال في النصّ الأدبيّ. وهي من آثار هيمنة المنطق الصوري الأرسطيّ على عقول العلماء الأقدمين في جميع الحقول العلميّة. وسيأتي أثر هذه الهيمنة في تقيّد البلاغة التقليديّة بوحدة الجملة وعدم تجاوزها إلى وحدة النصّ.

## ٣-٣. انعدام الربط بين جمال الأدب وجمال الخلق

عوّدتنا البلاغة العربيّة على منظومة من جماليّات أدبيّة بلاغيّة منثورة عشوائيّة غير منتظمة تتوزّع بين علوم المعاني والبيان والبديع، ولا تمتّ بصلة إلى أيّة منظومة أخرى. إنّها -بالإضافة إلى كونها غير منتظمة - تشكّل جزيرة مستقلّة لا ترتبط بسائر الجزر في نظام الوجود، بحجّة أنّ البلاغة والعلوم اللغويّة والأدبيّة من العلوم الاعتباريّة ولا علاقة لها بالعلوم الحقيقيّة.

لكنّ نظريّة «فنّ البيان» تتجه بالاتجاه المعاكس للنحو التقليديّ والبلاغة التقليديّة، وهي تعترف بأنّ العلوم الاعتباريّة تختلف في بنيتها عن العلوم الحقيقيّة، لأنّها تابعة لقيم الإنسان وتقاليده الثقافيّة والاجتماعيّة، لكنّها في الوقت نفسه تؤكّد أنّ العلوم الاعتباريّة ليست أنظمة منفصلة عن عالم الكون تمامًا. صحيح أنّها قائمة على المواضعة والاصطلاح، لكنّها تستمدّ في خلفيتها من أصول في نظام التكوين والسنن الحقيقيّة. القيم النفسيّة التي تؤدّي إلى خلق هذه الأنظمة (كالأنظمة السياسيّة والدينيّة والثقافية) مركوزة في صميم الفطرة الإلهيّة التي فطر الناس عليها، وهي حقائق كونيّة وسنن لا تتغير مع أحداث الدهر (فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله) (الروم: ٣٠). على هذا الأساس، اللغات البشريّة تتألّف من كلمات ومفردات تتمّ بالمواضعة والاصطلاح، لكنّها في الوقت نفسه تتمحور على بنى تحتيّة مشتركة مستمدّة في أساسها من سنن الحياة والكون.

إذًا، تتبنّى نظريّة فنّ البيان البلاغيّة» ضرورة استلهام أصولها من السنن الحاكمة على نظام الوجود، وإنّ جماليّات النصّ الأدبيّ ليست إلّا صورًا من مظاهر الجمال التي نشاهدها في عالم الوجود من أصغر ذرّاتها إلى أكبر مجرّاتها. نحن نتيقّن بوجود مناسبات بين المواضيع اللغويّة والأدبيّة وحقائق العالم. على سبيل المثال: بين الوصل والفصل في علم المعاني وبين كلّ اتصال أو انفصال في حقائق العالم، وبين التشبيه الذي يتخيّله الأديب والشاعر والتشابهات والتناسبات الموجودة خارجَ ذهن الأديب، وبين الجناس في علم البديع وتجانس شجرتَي الصفصاف في مواصفاتهما وميزاتهما. فإذا كان التقارن سنّة إلهيّة مطبقة على الحقائق الكونيّة، فهذا التقارن هو ذاته يتمظهر في اللغة ويسبّب جمال النصّ الأدبيّ.

## ٣-٤. الخلط بين النحو والبلاغة

معظم العناوين في أبواب علم المعاني مقولات نحويّة وليست بلاغيّة (كأبواب الخبر والإنشاء والإسناد والمسند إليه والمسند - بما فيها مواضيع التقديم والتأخير والذكر والحذف والتعريف والتنكير- والقصر والوصل والفصل). نحن في نظريّة فنّ البيان نحيل هذه الأبحاث إلى النحو - بما فيه نحو النصّ- ونحصر وظيفة علم النحو في البحث عن المعنى في الجملة أو النصّ، ونخصّ البلاغة -بعد تجاوز المعنى- بالبحث عن معنى المعنى كما سمّاه الجرجانيّ والمعنى الباطن كما سميناه نحن في «نظريّة فنّ البيان البلاغيّة».

قد يُسوّغ بعضُ الباحثين أنّ مقولاتٍ كالخبر والإنشاء والإسناد والمسند إليه والمسند تدرس في علمي النحو والبلاغة من وجهتَين مختلفتَين، فلا بأس أن تكون مقولات نحويّة وبلاغيّة في الوقت نفسه، لكنّنا نتصوّر أنّ عناوين الدروس البلاغيّة يجب أن تكون مختلفة عن عناوين الدروس النحويّة، كما أنّ علم المنطق على سبيل المثال يعالج العلاقة بين «المبتدأ والخبر» ولكن بعناوين «الموضوع والمحمول»، ولا يوظّف علماءُ المنطق عنوانَي المبتدأ والخبر كي لا تخلط دراساتهم بالدراسات النحوية. ثمّ إنّ الخبر والإنشاء -على سبيل المثال- موضوع نحويّ بحت وليس بلاغيًّا، ولا يدخل في الدرس البلاغيّ إلّا إذا احتمل ما يزيد عن المعنى (وهو المعنى الباطن) عندما ينزّل الخبر منزلة الإنشاء أو العكس.

## ٣-٥. سيطرة الطابع التفتيتي والغفلة عن بلاغة النصّ

الكلام البشريّ عبارة عن نصوص لغويّة، والنصّ هو الوحدة الأساس في اللغات البشريّة. وهو يتشكّل من وحدات أصغر منه وهي بالترتيب: الفقرة والجملة والعبارة والكلمة والصرفيم والصوتيم الذي لا أصغر منه.

وقد اشتغل أرباب العلوم العربيّة بخصائص الوحدات الصغرى كالصوتيم (في علم التجويد) والصرفيم والكلمة (في علم الصرف) والعبارة والجملة (في علم النحو). لكنّهم افترضوا الجملة هي الوحدة الأساس ولم يتعدّوها للبحث عن جماليّات الفقرة والنصّ، ومردّ ذلك إلى سيطرة العقليّة الأرسطيّة على عقولهم، لأنّ أرسطو في منطقه قسّم العلمَ الحصوليّ إلى قسمَين فقط، هما: التصوّر والتصديق، والتصوّر يتجلّي في الكلمة، والتصديق يتمظهر في الجملة المؤلّفة من مسند إليه ومسند. ولم يكن بعد التصديق في المنطق الصوري محطة، ولذلك غفل أتباع أرسطو -ومنهم النحويّون والبلاغيّون العرب - عن وحدة «النص»، ولم ينتبهوا إلى أنّ النصّ هو الأساس في نقل الرسالة اللغويّة من المرسل إلى المتلقّي.

ويؤسفنا أنّهم غفلوا أيضًا في إيحاءات قرآنيّة واضحة وشفّافة عن أهميّة النص، منها: أنّ القرآن الكريم حدّد النصّ القرآنيّ المتمثّل بـ «السورة» بصفته أساس الإعجاز القرآنيّ، ودعا إلى التحدّي بكلّ القرآن بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء: ٨٨، ثم خفّف

للمشركين، وطلب منهم التحدي بعشر سور مثله بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ هود: ١٣، إلى أن توقّف في التخفيف الأكثر على أن يأتوا بسورة من مثله بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ البقرة: ٢٣، ولم يخفّف إلى الآية الواحدة، ممّا يوحي بأنّ أقل الحدّ المعجز من القرآن الكريم هو السورة لا الآية. و«السورة نصّ متكامل»، وهذا يوحي بضرورة الدراسة النصانيّة للقرآن الكريم، لكنّ المفسرّين السنة والشيعة اشتغلوا بتجزئة السورة إلى آيات، وبذلوا كلّ الجهود لدراسة جماليّات الكلمة القرآنيّة والآية القرآنيّة، ولم يعتنوا بدراسة السورة القرآنيّة بصفتها نصًّا مترابطًا متماسكًا (إلّا في بحوث في العقود الأخيرة). وبذلك خسروا فهم ميزات مهمّة في الدراسات النصانيّة القرآنيّة في القرون الماضية. هذه بلاغة تفتيتيّة سمّاها سعد مصلوح «بلاغة الشاهد والمثال» (مصلوح، ٢٠١٠م، ٥١)، ونوال محمّد بـ «النظرة الاجتزائية» (محمّد، ٢٠١٣م).

## ٣-٦. حصر البلاغة في اللغة العربيّة

عرّف السكاكي علم المعاني بأنّه معرفة أحوال اللفظ العربيّ، وغفل عن أنّ هذه الأبحاث تشترك في مختلف الآداب في لغات العالم ولا تخصّ باللغة العربيّة وآدابها. كما غفل عن أنّ القرآن لا يدعو إلى اختصاص العربيّة بالدرس والبحث، بل إلى المقارنة بين لغات العالم (علم اللغة المقارن، والأدب المقارن) بقوله: ﴿إنّ في اختلاف الليل والنهار واختلاف ألسنتكم وألوانكم لآيات للعالمين﴾ (الروم: ٢٢).

## ٣-٧. حصر وجوه تحسين الكلام في علم البديع

عرّف السكاكي البديعَ بأنه علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسنًا وطلاوة. مشكلتنا مع هذا التعريف أنّه يشمل أدوات

علمَي المعاني والبيان أيضًا فهذه الثلاثة مشتركة في زيادة الكلام حسنًا وطلاوة.

## ٤. الأخطاء الجزئيّة في بلاغة السكاكي

المقصود من الأخطاء الجزئيّة ما يرتبط بجزء من أجزاء منظومته البلاغيّة وهي: المقدّمة والمعاني والبيان والبديع.

### ٤-١. أخطاء في المقدّمة (الفصاحة والبلاغة):

١. البلاغة التقليديّة تبدأ بمقدّمة في الفصاحة والبلاغة وشروطهما. لكن لا تتضح نوعيّة تحقق هذه الشروط في أبحاث علوم المعاني والبيان والبديع.

٢. تشترط في كون الكلام فصيحًا عدم مخالفة القياس. وهذا شرط زائد لأنّ مراعاة القياس شرط ضروريّ في الصرف والنحو ولا حاجة إلى ذكره هنا.

٣. تشترط في كون الكلمة فصيحة عدم تنافر حروفها، ونحن نرى في بعض مصاديق تنافر الحروف جماليّة أدبيّة، لأنّ المتكلّم قد يتعمّد استعمال حروف في كلمة أو كلمات في جملة بينها تنافر متعمّد للدلالة على شيء منفور. ولذلك حسبنا هذا التنافر المتعمد الدرجة الأولى من درجات جمال الألفاظ في «نظريّة فنّ البيان البلاغيّة».

**التنافر هو غاية التباعد بين أحرف الصوتيمات من حيث النبرة الصوتيّة ومخارج الحروف، وهو:**

- قد يقع في الكلمة الواحدة (تذكر الكتب البلاغيّة مثال الهعخع حيث تتنافر أحرف الهاء والعين والخاء ويصعب تلفّظها عندما تجتمع في الكلمة الواحدة).

- أو في كلمات الجملة الواحدة أو النصّ الواحد. الكتب البلاغيّة تذكر البيت التالي مثالًا لهذا التنافر:

**وقبر حرب بمكان قفر  وليس قرب قبر حرب قبر**

قد يستغرب القارئ الكريم أنّا نعدُّ التنافرَ مرتبةً من مراتب جمال الألفاظ في نظريتنا، ويتساءل كيف نتصوّر في التنافر جمالًا موسيقيًّا وقد عدّهُ البلاغيّون في مقدّمة علم البلاغة أمرًا مخالفًا للفصاحة إطلاقًا؟!

لكنّنا في نظريّة فنّ البيان ندرجه في المرتبة الأولى من مراتب جمال الألفاظ، شريطة أن يكون متعمّدًا ومفيدًا لإبلاغ الرسالة الجماليّة، ونذكر لمواقع كون التنافر مفيدًا المجالين التاليَين:

- أن تستعمل الكلمة أو الجملة التي تتنافر في الحروف قصدًا وعمدًا لأداء معنى منفور يريد المتكلّم أن يضخّ إحساس التنفر من مدلول الكلمة في نفسيّة المخاطب، ومثالها كلمة (ضيزى) في الآية الشريفة: ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ وكلمة الاستهزاء في ﴿إنّ الله يستهزئ بهم﴾، وكلمة يصّعّد في ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام/١٢٥)، وكلمة اثّاقلتم في ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (التوبة/٣٨).

- أن يقصد مقدرة المخاطب (خاصّة الأطفال) على تلفّظ الكلمات الصعبة.

## ٤-٢. أخطاء في علم المعاني

١. أهم موضوع بلاغي في علم المعاني هو ما سماه الخروج من المعنى الأصلي إلى معان فرعيّة لأغراض بلاغية. نختلف معه في تسمية المعنى الثانويّ بالمعاني الفرعيّة إذ إنّ الكلام يرتقي بواسطتها ولا يمكن أن يكون الفرع أرقى من أصله. لذلك نحن في نظريّة فنّ البيان نفضّل «المعنى الباطن» على «المعنى الفرعي».

٢. من هذا القبيل أيضًا توظيف مصطلح (التنزيل) في كون الجملة شاملة لمعنى آخر، فالبلاغيّون في هذا العلم يتحدثون عن (تنزيل الخبر منزلة الإنشاء) أو (تنزيل الممكن منزلة المحال) ويغفلون عن أنّ كلمة التنزيل تنزّل احتواء الكلام على معنى آخر، والحقّ أنّه ترفيع أو ترقية، ونحن نفضّل تسمية (انطواء الكلام على معنى آخر) لأنّ الانطواء يشير إلى المعنى الباطن المختبئ في طيّات المعنى الظاهر.

٣. ثم إنّ ادعاء الخروج من المعنى الأصليّ إلى الفرعيّ يوحي بأنّ المعنى الفرعيّ ينفصل عن الأصليّ. ونحن نرى أنّ ما يسمّيه الفرعيّ لا يخرج عن أصله بل يضيف المعنى الثاني إلى المعنى الأوّل الذي يحتفظ به في طيّاته. وهذا خطأ ارتكبه في تعريف الحقيقة والمجاز في علم البيان أيضًا.

٤. غفل السكاكي أنّ في ما يسمّيه بالمعنى الأصليّ والمعنى الفرعيّ توجد قرينة صارفة. وقد خصّ القرينة الصارفة بالخروج من الحقيقة إلى المجاز في علم البيان. في رأينا لا فرق بين علمَي المعاني والبيان في ضرورة حضور القرينة الصارفة ولذلك لا نقتنع بأنّهما علمان مختلفان.

٥. غفل السكاكي عن أنّ قيمة الكلام في الإيجاز ولا قيمة للإطناب إطلاقًا. فالمصاديق التي ذكرها في باب الإطناب لا يقصد المتكلم فيها الإطناب، بل يصوّرها غاية في الإيجاز، كما حصل في كلام موسى (ع) عندما أجاب ربّه تعالى بقوله ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ طه: ١٨. العبارة الأخيرة في الآية تشهد بأن موسى (ع) كان يأمل في ذكر أوصاف أخرى لعصاه لغرض إطالة الحديث مع المحبوب، لكنّه أوجز كلامه بذكر ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ ونحن نعدّه مصداقًا للإيجاز لا الإطناب.

٦. عدَّ السكاكي مثال ﴿بيضاء من غير سوء﴾ النمل: ١٢، مصداقًا لإطناب الاحتراس، لو صحّ هذا وجب عَدُّ كل قيدٍ زمنيٍّ أو مكانيٍّ

مصداقًا لهذا النوع من الإطناب، للمثال: في جملة: «سافرت أمس إلى طهران» ذكرت كلمة «أمس» للاحتراس من تصوّر قبل أمس أو يوم آخر من الأيام الماضية، ولكن لا أحد من البلاغيّين يُعدُّ هذا الظرف الزمنيّ إطنابًا ولا يعير قيمةً فنيّةً لما يسمّيه إطناب الاحتراس.

لم يلتزم السكاكي بالبحث عن طرق انطباق الكلام مع مقتضى الحال في أبواب علم المعاني، بالإضافة إلى أنّ مقتضى الحال أمر ضروريّ لكنّه لا يخصّ علم المعاني كما زعم، بل يشمل أبحاث علم البيان والبديع أيضًا. ثم إنّ مقتضى الحال في رأينا أمر ميتانصّيّ يتجاوز إطار اللغة والأدب ليبحث عن أوضاع المرسل والمتلقي حين وقوع الخطاب، وهذا أمر يتجاوز إطار البلاغة، ويدخل في علوم أخرى كتحليل الخطاب.

## ٤-٣. أخطاء في علم البيان:

١. النسبة بين علمَي المعاني والبيان: ينصّ السكاكي على أنّ البيان كالجزء من علم المعاني. لكنّه يعرّف علم المعاني بتعريف مختلف عن علم البيان، بمعنى أنّهما علمان مختلفان، وقد استقرّت منظومته البلاغيّة على ثلاثيّة المعاني والبيان والبديع. ثم غفلوا عن أنّ علم البيان ليس علمًا مختلفًا عن علم المعاني، بل هما علم واحد بدليل أنّ بين الأصليّ والفرعيّ والحقيقة والمجاز توجد علاقة وتوجد أيضًا قرينة صارفة، فهما علم واحد.

٢. حصر التدرّج التشكيكيّ في علم البيان: إنّ السكاكي انتبه إلى ضرورة «التدرّج التشكيكيّ» في فصول العلم البيان بقوله في تعريف البيان: (علم يراد به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في الشدّة والضعف). لكنّه لم ينتبه إليه في علمَي المعاني والبديع، وحتّى في علم البيان اقتصر على الإشارة إلى التشكيك في تعريف هذا العلم

فقط، ولم يرتّب التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية بمقتضى النظام التشكيكيّ! لكنّ نظريّة فنّ البيان البلاغيّة تؤكّد على أنّ الجمال في أساسه هويّة تشكيكيّة ذات مراتب مختلفة في الشدّة والضعف، ولا فرق في هذه الميزة بين ما سمّوه بالمعاني والبيان والبديع.

٣. قرّر السكاكي وعلماء البلاغة العربيّة تسمية المعنى الثانويّ في علم البيان بالمجاز، وغفلوا عن أن ما سمّوه المجاز مرتبة أعلى ممّا سمّوه الحقيقة. وفي هذه التسميات ظلم للحقيقة. فالحقيقة تسمو على المجاز في مدلولهما. إنّ المجاز هو الذي يجب أن يتجاوز إلى الحقيقة في منظومتنا الفكريّة والعرفانية، وليس العكس!

٤. عرّفوا المجاز بأنّه خروج من المعنى الحقيقي ولم يلتفتوا إلى أنّ المجاز لا يبتعد عن المعنى الحقيقيّ بل يحتفظ به ويضفي عليه معنى آخر، فهو لا ينطبق على ما سمّي في الحكمة المتعالية بـ «الخلع واللبس، بل هو مصداق لـ «اللبس بعد اللبس». ولهذا عرّفوا خطًا المجاز بأنّه استعمال اللفظ في غير ما وضع له. ونبّه إلى هذا الخطأ بعض البلاغيّين واستشهدوا بالبيت التالي للاعتراض عليه:

٥. قامت تظلّلني ومن عجب  شمس تظلّلني من الشمس

٦. فإنّ استغراب الشاعر من شمس تظلّله من الشمس دليل على أنّ استعمال الشمس في بيان تلألؤ وجه الحبيبة لا تبعد اللفظة عن معناها الحقيقيّ.

٧. اختلفوا في التشبيه هل يعدّوه ركنًا في علم البيان بمعزل عن الاستعارة نظرًا للقيمة الأدبيّة التي يحظي بها؟ أم يعدّوه مقدّمة لبابِ الاستعارة بدليل أنّ التشبيه لا يُخرج الكلمة من الحقيقة إلى المجاز؟

٨. وقعوا في تناقض منطقيّ في تعريف الكناية. حيث عرّفوها بأنّها استعمال مجازي مع جواز إرادة المعنى الحقيقيّ، ثمّ أضافوا أنّها لا تتحمّل أحيانًا المعنى الحقيقيّ لوجود قرينة صارفة.

٩. لم يتبنّوا قاعدةً سليمة في ترتيب أنواع المجاز (الاستعارة، المجاز المرسل، والكناية) فصنّفوا هذه الأصناف بشكل عشوائي.

## ٤-٤. أخطاء في علم البديع

١. تعريف علم البديع بأنه «علم معرفة وجوه تحسين الكلام» تعريف أعمّ من أبحاثِ علم البديع، حيث يشمل أبحاث المعاني والبيان أيضًا!

٢. البديع التقليديّ مجموعة مشوّشة من صناعات كثيرة لا يربط بينها أيُّ رابط، ولا يتضح أيّة صناعة مقدّمة وأيّها مؤخرة. البديع مجموعة محسنات مبعثرة لا تجمعها روابط منطقيّة ولا أدبيّة جماليّة، ومن الطريف أنّ بعض الباحثين رتّب المحسّنات ترتيبًا أبجديًّا للخروج من مشكلة التبعثر! وقد جرت محاولات في جمع بعض المحسّنات تحت عناوين عامّة، ومن هذه المحاولات كتاب شميسا بالفارسيّة بعنوان: «نگاهي تازه به بديع» (رؤية جديدة إلى علم البديع)، جمع فيه المحسّنات اللفظيّة تحت أربعة فصول هي: طريقة التسجيع، طريقة التجنيس، طريقة التكرار، والتفنّن وإبراز الاقتدار. كما جمع المحسّنات المعنويّة تحت خمسة عناوين هي: طريقة التشبيه، طريقة التناسب، الإيهام، ترتيب الكلام، والتعليل والتبرير. لكننا رتّبنا هذه المحسنات في «نظريّة فنّ البيان البلاغية» بترتيب مستوحى من ترتيب الجماليّات في نظام الوجود.

٣. لا إجماع في تسمية المحسنات البديعيّة، حيث تشتّتْ هذه الأسماء في مختلف كتب البديع.

٤. إنّ تعاريف المحسنات غير شفّافة، ممّا يسبّب تداخلًا بينها.

٥. اتفق البلاغيّون على أنّ أساس البلاغة في علمَي المعاني والبيان. أمّا البديع فيعدُّ محسّنات هامشيّة لتحسين وجوه الكلام. لكن نجد في هذه المحسنات أدوات مهمّة تُعدّ من أهم الدعائم لأدبيّة النصّ الأدبيّ كصناعة المبالغة. ولا يمكن نسيان أنّ بعض مصاديق حسن التعليل قد تكون أجمل من بعض مصاديق التشبيه والاستعارة في عمليّة التصوير الفنّي.

٦. عدّوا التشخيصَ محسّنة بديعيّة، وهو في الواقع استعارة مكنيّة تتعلّق بعلم البيان.

٧. فرّقوا بين محسّنة الجناس التامّ والتكرار، بحجّة أنّ الأولى تكرار كلمة واحدة بمعنيَين مختلفَين والثانية تكرارهما بمعنى واحد، ونسوا أنّهم وضعوهما في المحسّنات اللفظيّة فكان لا بدّ من تحليلهما من حيث الصوت فقط من دون الاهتمام بالمعنى. لذلك نحن جمعنا بينهما في محلّه في نظريتنا البلاغيّة.

## ٥. الخاتمة والإجابة عن أسئلة البحث

قلنا في مقدمة هذا البحث إنّنا خصّصنا بحثًا آخر غير هذا، لرصد النقائص التي تعاني منها البلاغة التقليديّة المتمثّلة بنظريّة السكاكي في مفتاح العلوم بعد اصطدامها بالتطوّرات الأدبيّة والنقديّة الحديثة، وركّزنا في هذا البحث على المشاكل الكامنة فيها منذ أولّ ظهورها.

وقد توصّلنا في الإجابة عن السؤال الأوّل أنّ بلاغة السكاكي وُلدت ناقصةً غير منتظمة من الأساس، لأنّ المشاكل التي ذكرناها في هذا البحث رصدناها من هذه المنظومة البلاغيّة منذ أوّل ظهورها.

أمّا السؤال الثاني: ما الأخطاء الكليّة التي عانت منها بلاغة السكاكي منذ ظهورها، ونحن رصدنا فيها الأخطاء التالية التي تعمّ هذه المنظومة بشعبها الثلاث المعاني والبيان والبديع، وهي:

الخطأ في اختيار عنوان: «البلاغة»، وانعدام الطابع الجماليّ، وانعدام الربط بين جمال الأدب وجمال الخلق، والخلط بين النحو والبلاغة، وسيطرة الطابع التفتيتيّ، والغفلة عن بلاغة النصّ، وحصر البلاغة في اللغة العربيّة، وحصر وجوه تحسين الكلام في علم البديع.

أمّا عن السؤال الثالث: الأخطاء الجزئيّة التي عانت منها بلاغة السكاكي منذ ظهورها، فقد رصدنا الأخطاء التالية:

١. أخطاء في المقدّمة (الفصاحة والبلاغة): عدم وضوح علاقة علوم المعاني والبيان والبديع بتحقق شروط الفصاحة والبلاغة في المقدّمة، وذكر عدم مخالفة القياس وهو موضوع نحويّ لا بلاغيّ، واشتراط مطلق لضرورة عدم تنافر حروف الكلمة، ونسيان مصاديق التنافر المتعمّد فيها.

٢. أخطاء في علم المعاني: الخطأ في اختيار مصطلحَي: المعنى الأصليّ والمعنى الفرعيّ بدلًا من الظاهر والباطن، والخطأ في اختيار مصطلح التنزيل بدلًا من الانطواء، وادعاء الخروج من المعنى الأوّل إلى المعنى الثاني في حين أنّه ليس خروجًا، والغفلة عن وجود القرينة الصارفة في الانتقال من المعنى الأوّل إلى المعنى الثاني، وافتراض الإطناب من مظاهر الجمال إلى جانب الإيجاز، والحديث الخاطئ عن إطناب الاحتراس، وعدم التطرّق إلى شرط علم المعاني في مراعاة مقتضى الحال في أبواب هذا العلم.

٣. أخطاء في علم البيان: الخطأ في ترتيب النسبة بين علمَي المعاني والبيان، وحصر التدرّج التشكيكيّ في علم البيان دون المعاني والبديع، وتسمية المعنى الثاني في علم البيان بالمجاز بدلًا عن المعنى الباطن، والحديث عن الخروج من المعنى الأوّل إلى المعنى الثاني وهو في الواقع ليس خروجًا، والاختلاف في عدِّ التشبيه ركنًا في علم البيان أم مقدّمة لركن الاستعارة، والتناقض في تعريف الكناية، وانعدام نظام سليم في ترتيب أنواع المجاز.

٤. أخطاء في علم البديع: حصر التعريف بوجوه تحسين الكلام في علم البديع دون المعاني والبيان، والترتيب العشوائيّ غير السليم في المحسّنات البديعيّة، وعدم الإجماع على أسماء المحسّنات البديعيّة، وعدم الوضوح في تعاريفها، وعدّ جميع محسّناتها هامشيّة مقارنةً بعلمَي المعاني والبيان، وافتراض التشخيص محسّنة بديعيّة، والتفريق الخاطئ بين الجناس التامّ والتكرار.

٥. أمّا عن السؤال الرابع: هل تصلح بلاغة السكاكي للإحياء من جديد؟ أم أنّ مفعولها قد انتهى؟ فنحن مع الخيار الثاني، لأنّنا يكفي أن ندمج علمَي المعاني والبيان بالدلائل التي ذكرناها في هذا البحث، ثم نعمّم تعريف تحسين وجوه الكلام من البديع إلى علمَي المعاني والبيان، لتنهار بلاغة السكاكي من الأساس، وتسقط دعائمها ولا يبقى من بنيانها شيء على الرّغم من اعترافنا بميزاتها الإيجابيّة في بعض التعاريف والأبحاث الجزئيّة في ثلاثيّة المعاني والبيان والبديع.

إذًا، لا يبقى حلّ إلّا بالتخلّي عن هذه المنظومة البلاغيّة التقليديّة، وبعده نحدّد موقفًا سليمًا، إمّا بالانحياز إلى الكتلة الغربيّة التي قضت بموت البلاغة نهائيًّا وإحلال علوم كالنقد الأدبيّ والجماليّات والأسلوبيّات والسيميائيّات وعلم الدلالة وتحليل الخطاب محلّها، أو رسم بلاغة عربيّة إسلاميّة تستمدّ أصولَها ومبادئها من رؤيتنا الكونيّة التوحيدية، وهذا ما اختاره الباحث بعونه تعالى ورسم بلاغة جديدة بعنوان: «نظريّة فنّ

البيان البلاغية». لقد فازت هذه النظريّة بالقبول والتسجيل الرسميّ في المجلس الأعلى للثورة الثقافيّة في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، وهي بانتظار ردود الفعل العربيّة والإسلاميّة في أمّة الإسلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

## المصادر والمراجع


١. القرآن الكريم
٢. الكتب العربيّة:
٣. أبو زيد، نصر حامد، (١٩٩٠م)، مفهوم النص، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
٤. البابرتي، أكمل الدين، (١٩٨٣م). شرح التلخيص، تحقيق: محمّد مصطفى رمضان صوفيّة، طرابلس ليبيا: المنشأة العامّة للنشر والتوزيع والإعلان.
٥. ابن نزيل، عدنان، (٢٠٠٠م)، النصّ والأسلوبيّة بين النظريّة والتطبيق، دمشق: اتحاد كتّاب العرب.
٦. الجرجاني، عبد القاهر، (١٣٧٢ق)، أسرار البلاغة، ط ٢، القاهرة: المنار.
٧. حسان، تمام، (١٩٩٤م)، مقالات في اللغة والأدب، بيروت: دار العلم للملايين.
٨. الخفاجي، عبدالمنعم (١٩٨٩م)، شرح الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، بيروت: الشركة العالميّة للكتاب.
٩. خمري، حسين، (٢٠٠٧م)، نظريّة النص من بنية المعنى إلى سيميائيّة الدال، الجزائر: منشورات الاختلاف.
١٠. الخولي، أمين، (١٩٩٦م)، فنّ القول، القاهرة: مطبعة دار الكتب.
١١. الزناد، الأزهر، (١٩٩٢م)، دروس في البلاغة العربية، نحو رؤية جديدة، بيروت: المركز الثقافي العربي.
١٢. سلامة، موسي، (١٩٦٤م)، البلاغة العصريّة واللغة العربية، بيروت: منشورات سلامة موسى.
١٣. الشايب، أحمد، (١٩٧٦م)، الأسلوب؛ دراسة بلاغيّة تحليليّة في أصول الأساليب الأدبيّة، ط ٧، القاهرة: النهضة المصرية.

١٤. العلوي، أحمد، (د.ت.)، الطبيعة والتماثل، الرباط: الشركة المغربيّة للناشرين.
١٥. كفوري، خليل، (١٩٩٤م)، نحو بلاغة جديدة، بيروت: منشورات ندّاف.
١٦. مصلوح، سعد، (٢٠١٠م)، في البلاغة العربيّة والأسلوبيّات اللسانيّة؛ آفاق جديدة، ط٢، القاهرة: عالم الكتب.
١٧. هدّارة، محمد مصطفى، (١٩٨٩م)، علم البيان، بيروت: دار العلوم العربيّة.
١٨. ياقوت، محمد سليمان، (١٩٩٥م)، علم الجمال اللغويّ: المعاني، البيان، البديع، القاهرة: دار المعرفة الجامعيّة.
١٩. المجلات العربيّة:
٢٠. محمد، نوال، ( ٢٠١٣م)، جهود الاستاذ امين الخولي في تجديد البلاغة العربيّة (عرض وتحليل ونقد)، مجلة كليّة التربية الأساسيّة، جامعة بابل. العدد ١٤.
٢١. الكتب الفارسية:
٢٢. شميسا، سيروس، (١٣٧٢ش)، نكاهي تازه به بديع. تهران: انتشارات فردوس.
٢٣. عمارتي مقدم، داوود، (١٣٩٥ش)، بلاغت از آتن تا مدينه، تهران: هرمس.